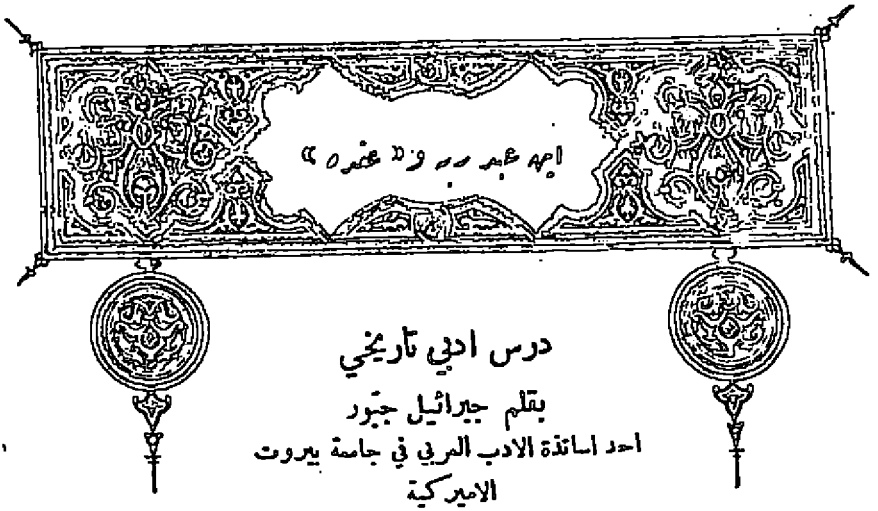

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

١

مصادر الدرس

ليس ايدينا مصادر ثلاثة نستقي منها اخبار ابن عبد ربّه اولها عِقده في الاخبار الكتاب الشهير الآن «بالعقد الفريد»، وثانيها شعره المنتثر في بعض الكتب وبالاخصّ في كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي وفي العقد نفسه، وثالثها ما كتبه المؤرخون والادباء عنه.

ولنبدأ بالاخيرة فنذكرها على انواعها ونجتهد في تصنيفها حسب اصلها وقدميتها وقيمتها ليتضح ما يجوز التعويل عليه من اخبارها وما لا يجوز، وترتبط بتفضيل مصدر على مصدر مسألة ذات شأن وهي: مَن من هؤلاء المؤرخين او الادباء قد اعتمد على غيره؟ ومَن منهم سبق غيره؟ ومَن منهم نستطيع ان نسقطه من قائمتنا لدرس حياة ابن عبد ربّه حيث انه لم يزد على من سبقه شيئاً؟ وكم كنا نودّ لو كانت لدينا دراسات علمية في رجال الادب والتاريخ العربي من حيث البحث عن المؤثرات المختلفة التي قد يمكن ان تكون اثّرت على بعضهم، او من حيث درس نزعاتهم الخاصة من شخصية وغيرها، والظروف التي احاطت بهم عند تدوينهم الاختيار، او انتمائهم الى بعض الاحزاب او تعصبهم لبعض الاشخاص الخ. وعسى ان لا يفوتنا تدوين ملاحظاتنا على بعضهم في حينها. وسنضرب صفحاً عن كل المصادر الحديثة اذ لم نرَ مصدراً منها يستند الى غير

الاصول التي بين ايدينا. فلا نعرض لها الا لمناسبات خاصة.

اما اقدمها واقربها عهداً بابن عبد ربه فكتاب « تاريخ علماء الاندلس » لابن الفرضي ابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي الحافظ المتوفى في ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ نيسان سنة ١٠١٣ م)[1] وقد ذكر نسبه كاملاً فقال: « احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر بن حبيب بن حدير بن سالم مولى الامام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية من اهل قرطبة يكنى[2] ابا عمر[3] »والى على شيء وجيز من تاريخه ، ولكنّ فيه فوائد كثيرة.

ويلي ابن الفرضي الثعالبي ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسمعيل النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ[4] (١٠٣٧-١٠٣٨ م) فلا يذكر في كتابه «يتيمة الدهر » سوى شعره ويوسع له ، من صفحة ٣٦٠ ج ١ الى صفحة ٣٦٤ ، ومن صفحة ٤١٢ بالجزء نفسه الى صفحة ٤٣٤ ، مجالاً لتدوينه . وتمتاز هذه المجموعة الشعرية بانها فريدة ، اذ ليس بين ايدينا مجموعة لشيء من شعر ابن عبد ربه غيرها ؛ وهي تضمّ اشعاراً لم يذكرها ابن عبد ربه في عقده . غير اني اخشى ان الثعالبي نظر اليه نظره الى رجلين فترجم للاول باسم احمد بن عبد ربه وذكر شعره من صفحة ٣٦٠ ج ١ الى صفحة ٣٦٤ ، وللثاني باسم احمد بن محمد بن عبد ربه وذكر شعره من صفحة ٤١٢ بالجزء نفسه الى صفحة ٤٣٤ . كما وان الثعالبي قد ذكر ابياتاً في صفحة ٣٥٧ ج ١ نسبها الى شاعر باسم حبيب بن احمد الاندلسي ، وقد اوردها ابن عبد ربه في عقده منسوبةً لنفسه ؛ ولعلّ حبيب بن احمد هذا مقلوبٌ عن احمد بن عبد ربه بن حبيب.

ويلي الثعالبي القيرواني ابو عبيد الله محمد بن شرف المتوفى سنة ٤٦٠ هـ[5] (١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) فيذكر في رسالة له عنوانها « اعلام الكلام » كلمة وجيزة

---

١) راجع بشأن سنة وفاته Moh. Ben Cheneb, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 375]

٢) في الاصل: يكنا

٣) ابن الفرضي ١ : ٢٧

٤) ابن خلّكان ١ : ٤١٢

٥) راجع اعلام الكلام ، طبعة الخانجي ، مصر سنة ١٩٢٦

عن ابن عبد ربه فيها تصريح بذائح ابن عبد ربه للمروانيين ومطاعنه في العباسيين.

ثم يعقب القيرواني الوزير الفتح بن خاقان المتوفى حوالي سنة ٥٢٩ هـ[1] (١١٣٤ م) فيسرد في كتابه «مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس» من صفحة ٥١ الى صفحة ٥٣ ترجمة ضافية لابن عبد ربّه راعى فيها السجع، وذكر بها اخبارًا وقصصاً عن ابن عبد ربه لم يذكرها ابن الفرضي، ولم يذكر الفتح شيئاً عن نشأة ابن عبد ربه الاولى، ولم يؤرّخ ولادته ولا وفاته ولم يذكر اصابته بالفالج؛ مما يدل على انه لم يطلع على كتاب ابن الفرضي، بل استقى من رجل ذكره عُرف بابن حزم، وربما استقى من مصادر اخرى لم يذكرها.

ويتبع ابن خاقان الضبيّ احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة المتوفى حوالي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م)[2] فيذكر في كتابه «بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس» صفحة ١٣٧ الى صفحة ١٤٠، بعضَ الاخبار عن ابن عبد ربه وعن عقده، ينقلها عن رواية الحميدي، وينقل بعض الاشعار عن ابن حزم. ويظهر ان الضبيّ ايضاً لم يطلع على رواية ابن الفرضي.

ويلي الضبيّ ياقوت الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ[3] (١٢٢٨ م) فيذكر في معجمه للادباء «كتاب ارشاد الاريب الى معرفة الاديب» ج ٢ صفحة ٦٧، ترجمة لحياة ابن عبد ربه يتفق اكثرها بالحرف مع ما ذكره الضبي؛ مما يدلّ على احد امرين: اما ان يكون ياقوت قد اخذ عن الضبي، او ان يكون كلاهما قد استقيا من مصدر واحد؛ لاسيما وقد ذكر كل منهما روايته مسندة الى الحميدي. ويجوز ان يكون ياقوت قد اخذ عن مصدر غير الضبيّ استقى صاحبه من الحميدي، اذ ان ياقوتاً ارتكب اغلاطاً لم يرتكبها الحميدي

---

١) راجع [Moh. Ben Cheneb, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 82] والفتح بن خاقان هذا هو غير الفتح بن خاقان صديق المتوكل والمقتول معه، راجع [K.V. Zetterstéen, [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 83] وراجع الفهرست، طبع اوربة، ١١٧

٢) [C. F. Seybold, [The Encyclopaedia of Islâm, vol I, p. 884]

٣) ابن خلكان ٢: ٢١٨

وصحف كلمات اصلحها الناشر الاستاذ مرجليوث ، وحذف ابياتاً وعبارات اثبتها الناشر ايضاً عن الحميدي[١] . ومن الخير الّا نجزم بمثل هذا الامر لاسيما ونحن لم نرَ النسخة التي خطها ياقوت بقلمه ، وليس لدينا نسخة من رواية الحميدي.

ويمتاز ياقوت بذكره بعض اخبار عن ابن عبد ربه وعن عقده لم يذكرها الضبي ، ولكن قد سبقه الى ذكر اكثرها الفتح بن خاقان . ولعلّ ياقوتاً قد نقلها عن الفتح هذا ، اذ انه قد اورد اكثرها كما اوردها الفتح بالحرف الواحد ، واسلوبها السجعي هو اسلوب الفتح نفسه[٢] . كذلك ترى المقاطيع الشعرية متتابعاً اكثرها على الترتيب الذي اورده الفتح.

وقد اتى بعد الفتح بن خاقان القاضي ابو العباس احمد الشهير بابن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)[٣] . فترجم لابن عبد ربه في كتابه « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ج١ ص٤٥ . فلم يزد على من تقدمه شيئاً . غير انه عند ذكره مطلع قصيدة ابن عبد ربه في المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم احد ملوك الاندلس.

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الاندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس،

يذكر مصدراً استند اليه في خبرها هو كتاب « ادب الخواصّ » للوزير ابن المغربي[٤] . ولعلّ كتاب « ادب الخواصّ » قد ذكر شيئاً عن حياة ابن عبد ربه تنفعنا معرفته . اننا لم نعثر على ذكر لهذا الكتاب في مختلف الموسوعات والكتب التي بين ايدينا . ولذلك فلا نستطيع معرفة موضع وجوده ان كان موجوداً الآن ، وبالتالي لا نعلم ما يمكن ان يكون تضمّنه من الاخبار عن ابن عبد ربه.

وعقب ابن خلكان عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

١) ياقوت ٢ : ٦٧ و٦٨ و٦٩

٢) ياقوت ٢ : ٧١ ، وقابله بالفتح بن خاقان ص ٥٢ . وقد ترى في بعض المواضع ان ياقوتاً يملكّ السجع غير انه يستعمل المفردات نفسها التي استعملها الفتح.

٣) راجع C. Brockelmann, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 396]

٤) ابن خلكان ١ : ٤٦

(١٤٠٦ م) [1] فكتب في مقدمة كتابه « كتاب البر وديوان المبتدا والخبر » ، ص٥٤٠، بحثاً عن الموشحات والازجال في بلاد الاندلس ذكر فيه ابن عبد ربه، صاحب العقد ، وكناه بكنية جديدة لا نعلم من اين اتى بها هي «ابو عبدالله»؛ وذكر انه اخذ نظم الموشحات عن مخترعها مقدم بن معافر . ولم يذكر شيئاً عن حياته،ولا دوّن شيئاً من موشحاته التي زعم انه نظمها،وانها كسدت بعده.

وتبع ابن خلدون الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١ه (١٥٠٥) [2]. فذكر في كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» ص ١٦١ ، شيئاً نسخه، فيما نرى،عن ابن الفرضي.

وتلا السيوطي المقّري ، بتشديد القاف ، احمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٤١ه (١٦٣١ م) [3]. فكتب في كتابه « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، ج ٤: ص٦٢٨ ، فصلاً عن ابن عبد ربه غير انه كفانا مؤونة البحث عن مصدر اخباره في هذا الفصل فذكر لنا انه نقله بالحرف عن الفتح بن خاقان واورده في كتابه « نفح الطيب » نموذجاً من كتاب « مطمح الانفس » وطريقة ترجمة الفتح حياة الاشخاص . وذكر المقّري اخباراً اخرى عن ابن عبد ربه لم يتصدَّ احدٌ لذكرها قبله.

وتلا هؤلاء جميعاً حاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ ه (١٦٥٧ م) [4] . فذكر في كتابه « كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون » ، ص ١٢٤ ، عقد ابن عبد ربه ونقل وصفه عن ابن خلكان . وذكر شيئاً عن ابن عبد ربه نقله عن ابن كثير[5] لم نرَ احداً من المتقدمين عرض له،الا وهو التشيّع من ابن عبد ربه لآل البيت.

---

١) راجع Alfred Bel, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 395]

٢) راجع F. Wüstenfeld, *Die Geschichtschreiber der Araber*, p. 229

٣) F. Wüstenfeld, *op. cit.*, p. 266

٤) J. H. Nordtmann, [The Encyc. of Islâm, vol. II, p. 205]

٥) هو الامام الحافظ عماد الدين ابو الفدا اسمعيل بن عمر الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ ه . صاحب كتاب « البداية والنهاية » في التاريخ (حاجي خليفه ج ١ : ١٨٧)

بقي لدينا طائفة يسيرة من الكتب التي ذكرت عرضاً اخباراً عن ابن عبد ربه صاحب العقد، عند تصديها لغيره؛ ككتاب «طبقات الامم» للقاضي صاعد ابن احمد بن صاعد الاندلسي المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ — ١٠٧٠ م)[١] حيث نرى ترجمة لابن اخي صاحب العقد فيها بعض الاخبار عن صاحب العقد نفسه[٢]. وككتاب «التكملة لكتاب الصلة» لابن الابار المتوفى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م)[٣] وككتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن ابي اصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠م)[٤] حيث نرى الاخبار نفسها منقولة، فيما نظن، عن ابن صاعد.

اما «كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» لابن بسّام فلم يطبع بعد، ولم نطّلع على نسخة خطية منه. غير اننا اخذنا ما ذكره ابن بسّام عن ابن عبد ربه من مصادر اخرى نقلته عنه «كفوات الوفيات» للصلاح الكتبي، ومقدمة الدكتور ا. ر. نيكل في ترجمة «طوق الحمامة» لابن حزم. وارود ان اشير هنا الى ان ابن بسّام، صاحب الذخيرة، هو غير ابن بسّام الشاعر الذي عاش في المشرق في بغداد وغيرها وعاصر المعتضد، وكتب اخبار ابن ابي ربيعة والاحوص ومناقضات الشعراء[٥]. فقد مات هذا سنة ٣٠٢ او ٣٠٣ هـ.[٦] بينما صاحب الذخيرة قد ترجم لرجال عاشوا في القرن الخامس للهجرة[٧]. ولعلّ لجنة نشر فهارس دار الكتب في القاهرة لم تلتفت الى هذا الامر في طبعتها الجديدة المتقنة لفهارس الدار[٨].

وهناك كثير من الكتب المتأخرة والموسوعات سنضرب الآن عن ذكر جميعها صفحاً، اذ انها كلها لم تستقِ من غير المصادر التي ذكرنا. وقليل من

١) راجع كتاب «طبقات الامم» لابن صاعد، طبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، سنة ١٩١٢، ص ١

٢) ص ٧٩ و٦٤ حيث نرى قصيدة لابن عبدربه صاحب العقد تفرّد ابن صاعد بذكرها

٣) [Moh. Ben Cheneb, The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 353]

٤) [The Encyclopaedia of Islâm, vol. II, p. 357] في المقالة المهمة التوقيع

٥) ابن خلكان ١ : ٥٠٢ ٦) ابن خلكان ١ : ٥٠٢

٧) الكتبي ١ : ٢٥٥

٨) فهارس دار الكتب المصرية ٣ : ١٥٢

اصحابها من اطلع على كل هذه المصادر ، ولعلنا نعرض لبعضها في حينه.

اما شعره فسنعرض له بمقال خاص . كذلك سنعرض لعقده بمقال آخر ، دون ان يفوتنا الاستشهاد بما يدفعنا في كل منهما من حيث علاقته بدرسنا عن حياته ونشأته وتزعاته وميوله.

وسنذكر الآن اتماماً للفائدة جدولاً باسماء اهم المآخذ (قديمها وحديثها) التي رجعنا اليها في درس ابن عبد ربه ، او في تحقيق شيء عن عقده او شعره ، مرتبة حسب قدمية اصحابها وظهورها . وسنكتفي بعدئذ عند الرجوع اليها بذكر اصحابها على الشكل المختصر المدوّن امام كل مأخذ .

المآخذ

الجاحظ ت : ابو عثمان عمرو بن بحر : التاج في اخلاق الملوك ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ ه. (١٩١٤م) .

الجاحظ م : المحاسن والاضداد ، ليدن سنة ١٨٩٨ .

ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : عيون الاخبار ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، فرغ من طبعها سنة ١٩٣٠ .

المبرّد : ابو العباس محمد بن يزيد الازدي : الكامل ، ليبزك سنة ١٨٧٤ .

ابن عبدربه : احمد بن محمد بن عبد ربه : العقد الفريد ، المطبعة الاميرية ، مصر سنة ١٢٩٣ ه

ابن الندم : محمد بن اسحق الورّاق : الفهرست ، ليبزك سنة ١٨٧١ .

ابن الفرضي : عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي : تاريخ علماء الاندلس ، مجريط سنة ١٨٩٠م

الثعالبي : ابو منصور عبدالله بن محمد بن اسمعيل الثعالبي النيسابوري : يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، المطبعة الحنفية بدمشق ، سنة ؟

القيرواني : ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني : اعلام الكلام ، طبعة الخانجي ، مصر سنة ١٩٢٦ م.

ابن صاعد : القاضي صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي : كتاب طبقات الامم ، بيروت سنة ١٩١٢ .

ابن خاقان : الفتح بن خاقان الوزير الكاتب : مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس ، مطبعة الجوائب ، استنبول سنة ١٣٠٢ ه

الضبي : احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، مجريط سنة ١٨٨٤م .

ياقوت : الشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، مطبعة هندية ، مصر سنة ١٩٢٦ .

ياقوت ب :معجم البلدان ، ليبزك سنة ١٨٦٩ .
ابن ابار : محمد بن عبدالله القضاعي: كتاب التكملة لكتاب الصلة ، مجريط سنة ١٨٠٩م
ابن ابي اصيبعة: احمد بن القاسم السعدي الخزرجي : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، المطبعة الوهبية ، مصر سنة ١٢٩٩ ه.
ابن خلكان: شمس الدين احمد بن محمد : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، مصر سنة ١٢٧٥ ه .
الكتبي : صلاح الدين محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، مصر سنة ١٢٨٣ ه.
ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، بيروت سنة ١٨٧٩ م
الابشيهي : الشيخ شهاب الدين: المستطرف من كل فن مستظرف ، بولاق سنة ١٢٧٢ ه
السيوطي : الحافظ جلال الدين الشافعي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مصر سنة ١٣٢٦ ه .
المقري : احمد بن محمد المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المطبعة الميرية المصرية ، سنة ١٢٧٩ ه
حاجي خليفة: كاتب چلبي : كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون ، طبعة الاستانة سنة ١٣١٠ ه .

Wüstenfeld — *Geschichtschreiber der Araber etc*, 1882
Hartmann — *Das arabische Strophengedicht, I Das Muwaššah*, 1897
Brockelmann — *Geschichte der arabischen Litteratur*, Berlin, 1902
زيدان : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر سنة ١٩١٢ م .
Dozy — *Spanish Islam, translated by* F. Griffin, Lon. 1913
شفيع : محمد شفيع : مقالته عن الحرمين كما وصفها ابن عبد ربه في كتابه «عجب نامه» *A Volume of Oriental Studies presented to* Edward G. Browne *on his 60th Birthday, edited by* T. W. Arnold and Reynold A. Nickolson. Cambridge University Press, 1922.
Nickolson — *A Literary History of the Arab*, Lon. 1923
بستاني : فؤاد افرام البستاني : الروائع عدد ٨ ج ١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت سنة ١٩٢٧ .
Ribera — *Music in ancient Arabic and Spain. translated and abridged by* E. Hague and M. Leffingwell Stanford, University Press, California, 1929.
Nykl — *The Dove's Neck-ring*, Paris, 1931

وقد يجوز ان نرجع الى غير هذه المآخذ . وعند ذاك فستدوّن اسم المأخذ كاملاً مشيرين الى موضع طبعه وزمنه.

٢

حياة ابن عبد ربه

قليل جدًّا هذا الذي بين ايدينا عن ابن عبد ربه . فلا هؤلاء المؤرخون ذكروا لنا شيئاً مفصلاً عن حياته في شبابه من حيث العمل الذي كان يعمله او الوظيفة التي كان يشغلها ، ولا هم شرحوا لنا كيف قضى بقية عمره . وجلُّ ما في الامر انهم اكتفوا بتاريخ ولادته ووفاته ، وببعض قصص ونوادر تكاد تطلّ على شيء من نواحي خلقه وطبعه ، واشاروا الى شيء من حياة اللهو التي كان يحياها دون ان يسهبوا او يفصلوا او يطّلوا ، واضافوا الى اشارتهم هذه انه كان للرجل ديانة وصيانة ، وانه آخر حياته اقلع عن لهوه وتاب عن غيّه ، مما لا يزيد عمّا نستطيع ان نفهمه من بعض اشعاره . والغريب انهم يسكتون عند هذا الحدّ بحيث لا نرى اشارة الى سبب توجه في شبابه منهج اللهو ، او الى كيف انصرف الى الغزل ، وطريق اي الشعراء سلك ، وما الذي ردّه عن سابق خطّته من اتباع سبل اللهو والعبث وقرض الغزل بحيث تاب واقلع عن صبوته وعمد الى شعره في الغزل فحصه ونقضه بغيره في المواعظ والزهد.

خذ مثلاً ابن خلكان فانه يقول : « ان ابن عبد ربه كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار الناس »[1] . ولكن من اين استقى تلك الاخبار ؟ ومن اي الاشعار كانت تلك المحفوظات ؟ واي الشعراء احبّ ابن عبد ربه ؟ وخطة ايهم اقتفى ؟ تلك امور لم يتصدَّ لها !

وكذلك كان شأن غير ابن خلكان من الذين كتبوا عن ابن عبد ربه ، لا نستثني منهم سوى ابن الفرضي فقد تفرّد بذكر بعض اساتذة درس عليهم ابن عبد ربه منهم بقي بن مخلد ، وابن وضّاح ، والخشني[2] . ولولا ان ابن عبد ربه

---

١) ابن خلكان ١ : ٤٥ ٢) ابن الفرضي ١ : ٣٧

ذكر لنا في عقده اسماء كثير من المصادر التي رجع اليها ، وبعض الفقهاء الذين اخذ عنهم ؛ ولولا انه صوّر لنا شيئاً من نزعاته وميوله وخلقه في كلا اثريه : شعره وعقده ، لكان تاريخه اقرب الى الخفاء منه الى الظهور ؛ وانا لنرى في عقده وفي شعره ما يساعدنا على فهم كثير من الامور التي مرّ بها بعض المؤرخين او الادباء مكتفين بالاشارة اليها .

نسبه

هو ابو عمر[1] احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير[2] بن سالم القرطبي ، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[3] بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي[4] .

ولادته

ولد على الارجح في قرطبة[5] في شهر الصوم ، رمضان ، في العاشر منه سنة ٢٤٦ هـ[6] . وهو ما يوافق التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٨٦٠ م[7] .

نشأته

لم يذكر احد شيئاً عن ايام ابن عبد ربه الاولى ، ولا هو المع الى شيء من من وصفها في عقده ، ولا نحن نعلم شيئاً عن ابيه او جدّه او المحيط العائلي

---

١) بعض المصادر تذكره بواو « ابو عمرو » وهو خطأ . وقد وردت هذه الكنية في شعر بذيء لمعاصر لابن عبد ربه هجاه به :

يا عرسَ احمدَ اني مزمعٌ سفرا فودعيني مرّةً من ابي عُمَرا

راجع المقري ٢ : ٨٣٣ . وسنتصدى لامر كنية ابن عبد ربه في موضع آخر .

٢) ياقوت ٢ : ٦٧ يكتبها « حدر » . غير ان الناشر يصلحها في الهامش بحدير ، نقلاً عن الحميدي . اما ابن خلكان ١ : ٤٥ فيكتبها « حدير » ثم يقول بضمّ الخاء ، وفي سائر المصادر نراها « حدير » .

٣) ابن الفرضي ١ : ٢٧ ٤) الضبي : ١٢٧

٥) ليس بين المصادر الاوليه التي بين ايدينا ما يبين موضع ولادته . فالبعض كابن الفرضي مثلاً يذكر ان ابن عبد ربه من اهل قرطبة (١ : ٢٧) وابن خاقان يذكر حادثة جرت لابن عبد ربه في شبابه ، وهو في قرطبة ، والغريب ان Brockelmann يجزم ان الولادة كانت في قرطبة راجع مقالته في [The Encyc. of Islam, vol. II, p. 353]

٦) الضبي : ١٢٧

٧) Brockelmann, [The Encyc. of Islim vol. II, p. 352]

الذي نشأ فيه . وجل ما نعلم هو ان والد جد جده ، «سالم القرطبي» ، كان مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . وقد كان هشام بن عبد الرحمن اميرًا بعد ابيه عبد الرحمن الداخل . ولكن هل استمرت عائلة سالم القرطبي في ولائها لآل هشام من بعده . ذلك امرٌ لا نعلمه .

نشأ في قرطبة كما يستدلّ من بعض الاخبار المرويّة عنه[1] . وقد كانت قرطبة في ذلك العصر من اعظم مدن الاندلس تشبه بغداد في كثير من الوجوه ، حتى قيل انها كاحد جانبي بغداد[2] . وكان فيها رصافة كرصافة بغداد[3] . وكانت عظيمة العمران ، ذكرها المقّري في «نفح الطيب» فقال : «يحكى ان العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت الى كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة اميال وفيها جبال الورد الذي صار اصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمتخونه منه ونهرها ان صغر عندها عن عظمه عند اشبيلية فان لتقارب يريّه هنالك وتقطع غدره ومروجه معنى آخر وحلاوة اخرى وزيادة انس وكثرة امان من الفرق وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارةً وبهجة»[4] .

وقال ابن حوقل التاجر الموصلي ، وكان قد طرق تلك البلاد في حدود سنة ٣٥٠ : «واعظم مدينة بالاندلس قرطبة وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الاهل وسعة الرقعة»[5]

وليس غريباً ان تكون قرطبة كما وصفها هؤلاء . فقد كانت عاصمة الامراء الاندلسيين من بني امية ، منذ زمن عبد الرحمن الداخل في منتصف القرن الثاني الى زمن عبد الرحمن الناصر ، الذي عاصره ابن عبد ربه ، والى ما بعد زمن الناصر .

وكان اهلها متموّلين[6] . وكان فيها من ضروب اللهو والغناء ما يوافق حاضرة مثلها . تغرّب عنها قاضي الجماعة فيها ، فقال :

---

١) ابن الفرضي ١ : ٢٧
٢) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٣) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٤) المقري ٣ : ٢٩٣
٥) ياقوت ب ٤ : ٥٩
٦) » » »

يُلِمُّ ذكراي من ورقٍ مغرّدة على قضيبٍ بذاتِ الجزع ميّاسِ
رددن شجوًا شجى(١ قلبي الخليّ فقلْ في شجو ذي غربةٍ ناءٍ عن الناسِ
ذكّرنه الزمن الماضي بقرطبة بين الاحبّة في لهو وايناسِ
هجن الصبابة لولا همّةٌ شرفت فصيرت قلبه كالجندل القاسي. (٢

وكان الغناء شائعاً عند هؤلاء العرب الاندلسيين، لاسيما في قرطبة حيث كانت تفد الجواري المغنيات من مختلف الاقطار العربية، من عهد زرياب المغني، موصلي الاندلس وصاحب السهم الاكبر في هذه الحركة الغنائية فيها، الى عهد شاعرنا ابن عبد ربه الذي كان فيما سيظهر لنا من المولعين بسماعه. وكان بلاط الامراء مسرحاً لهؤلاء المغنين والمغنيات(٣. وكتب تاريخ الاندلس، من قديمة وحديثة، مفعمة بالاخبار عن هؤلاء وحياتهم في اندية الملوك والامراء وعن الاثر الذي تركوه في نفوس اهل ذلك الجيل وادبهم. وتتفق هذه الكتب في ان الامراء كانوا يتبارون في اقتناء الجواري المغنيات، كما يتبارون في استحضار الشعراء الى بلاطهم. فيحيطون الجميع بعنايتهم ورعايتهم ويشجعونهم ويغدقون عليهم العطايا.

وكان ابن عبد ربه جدّ مولع بسماع هذا الغناء. ذكر الفتح بن خاقان ان الغناء الذي سمعه ابن عبد ربه وهو مارّ تحت قصر احد الوزراء بقرطبة اذهب لبّه والهب قلبه(٤. وسرعان ما تناول رقعة كتب عليها الى صاحب القصر يسأله الاذن في سماع المغنية:

يا من يضنّ بصوت الطائر الفرد ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو أنّ اسماع اهل الارض قاطبةً اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضنّ على سمعي تقلّده صوتاً يجول بحال الروح في الجسد.
اما النبيذ فاني لست اشربه ولست آتيك الا كرهاً بيدي (٥

١) كذا في الاصل، والصواب: شجا
٢) ياقوت ب ٤: ٥٩
٣) Ribera، صفحة ١٠٩، يذكر انه كان عند الامير سعيد بن جودي مغنية اسمها جهان كانت ترغب في ان لا تخفي صوتها، فكانت تنشد من الغرفة العليا في المنزل.
٤) ابن خاقان: ٥١
٥) ابن خاقان: ٥١

وذكر المقرّي ان هذه المغنية «مروقة اسمها مصابيح ، وقد كانت جارية عند الكاتب ابن حفص عمر بن قلهيل ، وقد اخذت الغناء عن زرياب نفسه . وروى انها كانت غاية في الاحسان والنبل وطيب الصوت ، وان سيدها عند قراءته ابيات ابن عبد ربه خرج حافياً وادخله الى مجلسه فتمتع من سماعها[1].

ولنترك ما يقوله ابن خاقان والمقرّي الى ما يجاهر به ابن عبد ربه نفسه في عقده فيقول : «الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى وملاة الكئيب وانس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب واخذه بمجامع النفس.»[2] وقال ايضاً : «وقد يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة. فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذبّ عن الاعراض والتجاوز عن الذنوب . وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويرقق القلب من خشونته ويتذكر نعم الملكوت ويتمثله في ضميره»[3].

ولا استطيع المرور بهذا الكلام الذي يصف فيه ابن عبد ربه اثر الالحان الحسان في النفوس وفعلها في ترقية الاخلاق دون ان اتخيّل الرقيّ الذي كانت عليه هذه الصناعة ، او هذا الفن في العالم العربي وبالاخص في الاندلس ، يوم كانت اوربة لا تفقه منه شيئاً. وهل بعد هذا التصريح من ابن عبد ربه يظلّ بعض الغربيين على اعتقادهم ان الموسيقى قبل القرن السادس عشر لم تكن تثير في النفوس روعة الجمال كما تثيرها موسيقى اليوم ؟[4]

ولا بدّ لي بهذه المناسبة ايضاً ان ادون هنا ان هذه الموسيقى الاندلسية من غناء وانغام لم ينقصها في نظر المستشرقين الذين فرغوا للبحث فيها وتخصصوا

---

١) المقري ، طبعة اوربة ، ٢ : ٩٠ . ويذكر Dozy ، ص٣٢٤ ، قصة مثل هذه عن الامير سعيد بن جودي انه كان مارًّا بقرطبة قرب قصر الامير عبدالله، فسمع صوت المغنية جهان من نافذة تطلّ على الشارع ، وكانت تغني للامير وتسقيه خمرًا ، فانزوى سعيد في زاوية وتطلع الى النافذة حيث رأى يد جهان تناول الامير خمرته ، فمثلها .

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٩ .

٣) » » »

٤) Ribera, p. S ، ومن المثير ان Ribera نفسه لا يرى رأي هؤلاء .

لدرسها كـ Farmer و Ribera ، تلائمُ الاصوات وحسن ايقاع الالحان ، اي الهارموني (harmony) ، التي ينعاها بعض الغربيين على الموسيقى الشرقية اليوم. بل اذهب الى ابعد من هذا فادوّن ما كتبه احدهما Ribera في مقدمة بحثه الذي رفعه الى الاكادمية الملكية في اسبانية قال: « وهكذا اصبحت اسبانية الفنية القديمة العروة الوسطى التي ربطت الفن القديم بالجديد» ثم يقول ايضاً : « ان اوربة اذًا مدينة لهؤلاء الاندلسيين الذين حازوا هذا التراث في فنّ الموسيقى ونقلوه الى اوربة فظلّ مصيناً لا ينضب يرده الموسيقيون من اوربة دون ان يبحثوا عن مصادره .» [1]

وكم اود لو يعنى اليوم احد الموسيقيين الشرقيين ، الذين حازوا شيئاً من الثقافة العلمية والموا باساليب البحث العلمي الحديثة ، بدرس هذه الناحية من الموسيقى العربية القديمة وتبيان آثارها في موسيقى الغرب.

ولنعد الى ابن عبد ربه نسمع قوله في العقد ايضاً : « وبعد فهل خلق الله شيئاً اوقع بالقلوب واشدّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن اذا كان من وجه حسن ؟ [2] »

ولعلّ في هذا القول ما يلائم المبالغة التي رأيناها في قول الفتح بن خاقان عن ابن عبد ربه انه سمع صوتاً من القصر اذهب لبّه والهب قلبه [3].

وخصّص ابن عبد ربه كتاباً من عقده للالحان ، هو كتاب الياقوته الثانية، ذكر فيه كثيرًا من الروايات التي احتجّ فيها الناس باجازة الغناء ، وذكر بعض الاحاديث المنسوبة الى النبي العربي التي تجيز الغناء [4] . وردّ على ادعاء من كره الغناء ، وذكر تأويلهم في ذلك آيات من القرآن فخطأهم في التأويل [5] ، ومضى محاولًا اظهار انّ من كره الغناء انما كان كرهه له ككره بعضهم الملاذّ من مطعم ولباس وغيره ، لا على طريق التحريم ، واستمرّ يفند حججهم ويردّ عليها.

١) Ribera, p. 9
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٠
٣) ابن خاقان : ١٥
٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٢
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٢

فاذا ما ذكر قصة الحسن البصري مثلاً ، وقد تقدم اليه رجل يسأله عما يقول في الغناء فيجيبه : « نعم العون الغناء على طاعة الله ! » ويعود الرجل فيقول : « اسألك عماذا تقول في ان يغني الرجل ؟ » فيقول البصري : « وكيف يغني ؟ » فيأخذ الرجل يلوي شدقيه وينفخ منخريه . فيقول البصري : « ما ظننتُ ان عاقلاً يفعل هذا ! » ، اذا ما ذكر هذه القصة وهذا الجواب الذي قد يشتمّ منه كره البصري للغناء ، انبرى يقول ان البصري انكر على الرجل تشويه وجهه وتعويج فمه ليس الا[1] . وقد يسلّم ابن عبد ربه مع خصومه في هذا الامر في ان بعض الايمة كانوا يكرهون الغناء ، ولكنه يردّ عليهم بانّ هذا مذهب العراق او ، كما يقول هو ، « انما هو من طريق اهل العراق »[2] ويقول : « فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والأذان احقّ بالتنزيه عنها ، وان كانت غير مكروهة فالشعر احوج اليها . »[3]

وهكذا ترى ان ابن عبد ربه كان مولعاً بهذا الغناء مغرماً به يستلذه كثيراً ، لاسيما ان كان من وجه حسن . ويجيزه على مذهب اهل الحجاز ، وبالاخص اهل المدينة ، يقول : « ديننا في السماع دين مدينتي »[4] . ولنا ان نظنّ انه كان يقضي قسماً من وقته لا بأس به في سماعه في المجالس التي كانت تعقد له ، لاسيما في بلاط الامراء الذين كان يتردد عليهم .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٢
٢) » » » »
٣) » » » ٣ : ٢٢١
٤) الثعالبي ١ : ٢٦٣

(للبحث صلة)